للسر اوليفر لودج — مأخوذ للمقتطف

هل قوّض العلم اركان الفلسفة ؟

قيود المذهب المادي

هل يستطاع التوفيق بين طرق العلم ومذاهب الفلسفة

لقد بذلت مساعٍ كثيرة للتوفيق بين الفلسفة والمكتشفات العلمية الحديثة . فرجال العلم الذين يحاولون الكشف عن اسرار الوجود حملتهم مباحثهم على ان ينظروا اليه نظراً ميكانيكيًّا ماديًّا لظنّهم ان الرأي الميكانيكي قد يكون كاملاً في ذاته او قريباً من الكمال. ومع انهم تقدموا تقدماً كبيراً في هذه الناحية من البحث تراهم خففوا قليلاً من سرعتهم عند ما بدت لهم ظاهرات الوجدان والادراك والعقل تتطلب تعليلاً . فساق ذلك طائفة منهم الى الريب في مكنة الاختبار من تفسير الكون تفسيراً صحيحاً متسائلين هل مذاهبنا العلمية الا اساليب سهلة لترتيب الحقائق المعروفة وتنظيمها ؟ غير انهُ صعُب عليهم ان يوفقوا بين النظر الفلسفي الكمالي المبني على التأمل العقلي وبين مقرّرات العلم المبنية قياساً وتجربة. كذلك وجدوا صعوبة كبيرة في التأليف بين النظر الفلسفي والرأي القائل ان الكون آلة اوتوماتيكية متصلة الاجزاء منتظمتها تكفي نفسها بنفسها وان الظاهرات العقلية مظهر وهمي خارجي لا تعدو انها نتيجة للتفاعل المعقد بين الدقائق المادية . ان زمن «العلة والمعلول» قد انقضى في نظرهم ويجب ان يحلّ محلهُ نظر مجرّد الى تتابع الافعال الطبيعية . وان تكيف الغاية للوسيلة والجسم لبيئته انما هو نتيجة لاحوال الحياة والوراثة ولا يدلُّ دلالة ثابتة على وجود غاية او نظام . لانهُ وان اعترف المفكرون بحقيقة النشوء امكن توفير الادلة على ان كلّ ما نراهُ انما هو تغير او تكيّف لا مندوحة عنهُ يقع وفقاً لمقتضيات البيئة من غير ان يفيد زيادة في قيمة النشوء توصلاً الى غاية معيّنة

ويقولون كذلك ان ما ندرسهُ بالعلم هو اشياء يستطاع قياسها ووزنها وفي امكاننا ان نضع لها نواميس كيّة دقيقة . ورجاؤنا انهُ كلما تقدم العلم تمكن من ان نحوّل كل شيء ، رويداً رويداً ، الى تتابع ميكانيكي محتوم يمثل فعل جسم مادي في آخر ، على طريقة نظام نيوتن الفلكي

هذا من جهة. ومن جهة اخرى نجد فريق المفكرين الذين يستوقفهم اساس الكون العقلي الكمالي قبل كل شيء . انهُ يتعذر عليهم أن يدركوا تفاعل الحياة والعقل مع المادة وان يفهموا معنى النظام الميكانيكي المادي من الوجهة العقلية الصحيحة . فكأن هناك اختلافاً بين ضدّين متنافرين لا يمكن حلّهُ . والقول بان النشوء فعل اوتوماتيكي لا معنى لهُ ولا نظام تنبو عنهُ معتقدات جمهور كبير من الناس السذّج الذين يصغون لوحي بديهتهم . فاذا تعذّر التوفيق بين المذهبين تعرض هؤلاء خطأ منهم الى ان يخلوا عن حقيقة النشوء ذاتها مع توافر الادلة على ثبوتها

وهذا الموقف الاخير ، كيفما قلّبتهُ موقف عقيم

غير ان هذه الصعوبة دعت البعض الى الشك في شهادة الاختبار ، وحملهم على اعتناق فلسفة دينية صوفية تترك كل المظاهر الطبيعية من غير تعليل. كأن حقائق الطبيعة وروح الانسان على طرفي نقيض . فلذلك نرى دعاة الرأي الواحد يتجاهلون دعاة الرأي المناقض

فالذين يرون ان « العلة والمعلول » ليسا سوى تتابع زمني ولا يجدون في النشوء سوى تغيّر مستمرّ يقفون في جهة واحدة . انهم تقدموا تقدماً عظيماً في ميدان بحثهم ولكنهم ميالون في الغالب الى ان يحسبوا النظر الكمالي نظراً خاطئاً غير جدير بالعلم وبالطرق العلمية. فالعلم قياسٌ في رأيهم وكل ما لا يستطاع تحويله (او لا يبدو عليه امكان هذا التحويل) الى قواعد رياضية مبنية على القياس غير جدير بالنظر

هذا المذهب الذي يعتنقهُ اكثر علماء الطبيعة والرياضيات هو ثمرة طبيعية للانتصارات العلمية الباهرة التي احرزوها في هذا الميدان من ميادين المعرفة الانسانية . وقد بدأ يتصل اثرهُ بعلماء الحياة ، فيما يطمحون اليهِ من الغايات . وفي بعض رسائل نيوتن التي بسط فيها ان غاية العلم العليا هي اسناد الظاهرات الكونية الى تفاعل القوى بين الدقائق ما يدعم هذا الرأي . ولكن يجب ان نذكر انهُ مهما يكن الرأي الذي يعتنقهُ علماء الرياضيات في هذا العصر فمبتدعوهُ العظام من عصر نيوتن الى الآن لم يكونوا قانعين بهِ لانهم شعروا فطرةً انهُ لم يكن كاملاً وان هنالك طرقاً اخرى ابعد غوراً واسمى حكمة للنظر الى الكون. فقد حاولوا ان ينظروا الى الكون في جملتهِ واجزائهِ واعتمدوا على المشاهدة والاختبار ليقودهم الى الغاية التي يتوخونها وهي الحق المجرّد الخالد

والظاهر ان هنالك شيئاً من العلاقة والاتصال بين عقل الانسان وحقائق الطبيعة بل لقد ذهب بعض المفكرين الى ان نظرتنا الى الكون وتعليلنا للنظام الطبيعي ليسا الاّ من مبتدعات العقل البشري وأن حقيقة الوجود على ما هي — من غير نظر الى رأي

العقل فيها — يجب ان تبقى سرًّا مغلقاً. ففريق منهم يرتاب في النظام الميكانيكي وفريق آخر يرتاب في الغاية التي وجد من اجلها

ان التوفيق بين هذين الاتجاهين المتناقضين والتوحيد بينهما ثم ادغام الرأي الجديد في قانون عام شامل يجب ان يكون غاية الفلسفة الحديثة وغاية العلم الحديث

مهما تظاهر علماء النشوء بعدم اهتمامهم بالاسباب الاولى ووحدة الكون وفائدة النشوء لا يستطيعون ان ينكروا ان النشوء ليس تغيُّراً فقط بل هو تغيُّر يصحبهُ ارتقاء والانواع ترتقي من أشكال دنيا الى اشكال عليا. هذا الاقرار يوجب القول بان « الكل » سائر في سبيل التقدم الى كمال نهائي وان مراحل هذا السير لا يمكن ان تخلو من القصد والمعنى

ولكن اصل الانواع لا يزال سرًّا غامضاً. فالمذهب القديم القائل بالخلق المستقل اي ان كل نوع من انواع الحياة خلق على حدة — ليس حلاً لهذه المشكلة الفلسفية لان طريقة خلق هذه الانواع يجب ان تدخل في دائرة البحث العلمي. وسواء كان النشوء العضوي عملاً متصلاً مستمرًّا بادت فيه انواع وانقرضت (فصار في سلسلة النشوء كلها حلقات مفقودة كثيرة) او كان هذا النشوء يتمُّ بحدوث تحوُّل فجائي يورِّث للاجيال المقبلة اذا كان مناسباً للبيئة مساعداً على البقاء (وعلى ذلك فليس في سلسلة النشوء حلقات مفقودة) كل هذه مسائل لا تزال مثاراً للجدال بين الباحثين

فالبحث والاختبار يدلان على ان التغيُّر والوراثة والتكيف وفق مقتضيات البيئة وتنازع البقاء وبقاء الانسب هي اسباب النشوء الحقيقية. ولكن كيف نشأت وجوه التغيُّر في انواع الاحياء وهل التكيف لمقتضيات البيئة يتم بسعي الفرد او بالتحوُّل الفجائي الذي لا حكم لهُ عليه، وهل هناك مبدأ اساسي وغاية لعمل النشوء — كل هذه مسائل لا تزال من غير جواب

فلكي تتقدم ، ونخلص من التصوف العقيم ، لا بدَّ لنا ، ونحن لا نملك علماً راسخاً بهذه الموضوعات ، شيء من الايمان — ايمان في ازدياد قيمة الوجود وفي مقدرة العقل البشري على تفهم الحق المجرد وفي فائدة الاختبار كرائد لنا في الوصول الى الحقيقة

ولا اريد ان اقصر لفظ « الاختبار » على كل الادلة التي تقع في دائرة الحواس فقط بل على ما نستطيع استنتاجهُ بوحي البديهة وبالنظريات التي نستنبطها لتلقي بعد ما تساعدنا في الكشف عن حقيقة جديدة . فاننا نستطيع ان ندرك الاجسام المادية بالاختبار كما نستطيع ان ندرك الحالات العقلية . وعلينا ان لا نهمل اي جانب من قوى الادراك اذا اردنا ان نفهم « الكل » فهماً كاملاً